السرد و تشكل الهويـة
قراءة في روايـة "البحث عن العظام"
للطاهر جاووت

د/ هنية جوادي

قسم الآداب و اللغة العربية

كلية الآداب و اللغات

جامعة محمد خيضر بسكرة– الجزائر

الملخص

يمثل سرد الهوية و الاحتفاء بالخصوصية الجزائرية ملمحا بارزا يسم عددا من المتون الروائية (الجزائرية)،و يجعل منها هوية ممتدة تشتبك في رحابها مرجعيات متنوعة: فنية و فكرية و ثقافية، تتصل في مجملها بقيم تأصيل الذات وتجذير كيانها. و قد تكون رواية "البحث عن العظام" للطاهر جاووت إحدى أهم النصوص الروائية التي اشتغلت على إشكالية الهوية الجزائرية و أبانت عن أهمية السرد في رفد وصياغة مختلف عناصرها وتسخير ما تتوفر عليه من إمكانات جمالية في إعادة ترتيب العلاقة مع الذات والآخر، فشكلت بذلك إضافة نوعية في مجال الرواية الجزائرية.

Abstract

Both the identity citing and the great importance given to the Algerian’s speciality gave a good impacton many Algerian Novels and made of it a deep identity in which there are different arts , cultural and intellectual views linked all with the norms and rooted its structure.The Novel " Searching for the Bones ",TaherDjaout , may be one of the most important Novels that worked on the problematic of the Algerian Identity and showed the importance of narrating especially in feeding

and constructing its different elements and exploiting all its aesthetic in the classification of the relationship with the ego and the other. Thus, it establised an addition in the field of the Algerian Novels.

مقدمة

تضطلع الرواية الجزائرية منذ نشأتها بدور كبير في بناء صرح معرفي بالإنسان و هويته وثقافته، فقد كانت و ما تزال حقلا ثريا تتفجر فيه أسئلة الماضي و الحاضر والمستقبل،ومصدرا يعج بشتى الصور و الرموز الدلالية المعبرة عن خصوصية ثقافية وحضارية ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، تشغل هويتها اهتمام كوكبة كبيرة من المبدعين على غرار ما نقرأ في روايات عبد الحميد بن هدوقة و واسيني الأعرج و مولود معمري ومولود فرعون ...

أبان طرح هؤلاء المبدعين لإشكالية الهوية في السرد الروائي عن تفاوت في التصورات التي تتصل بعملية إعادة إنتاجها روائيا.و من هنا تتصدى هذه الدراسة لمعالجة تجليات الهوية في رواية البحث عن العظام للطاهر جاووت و تطمح الإجابة عن جملة من الأسئلة أبرزها:

ما أهم السياقات التاريخية المؤثرة في تشكل الهوية في الرواية الجزائرية؟

ما مدى الحاجة إلى السرد الروائي في التعبير عن إشكالية الهوية و ما هي الأدوار التي يمكن أن يقوم بها لإخراج بعض مكونات الهوية من دوائر النسيان؟ و هل يمكن استثمار التراث المحلي بديلا جماليا و انثربولوجيا لتأكيد الذات و مشروعية وجودها؟

و لكن قبل ذلك حري بنا تحديد مصطلحي السرد و الهوية باعتبارهما أهم مفاتيح هذه المقاربة.

1-المصطلحات الأساسية / محاولة في الضبط

-السرد:

إن المقصود بمصطلح "سرد" في هذه الدراسة هو تلك العملية الإجرائية التي تنتج عنها القصة، حيث يصير كل شيء من وصف وحوار وتعليق مرويا أو محكيا أي مسرودا.[1] والسرد أداة الخطاب الروائي ، إذ إنه يشمل المستوى التعبيري في العمل الروائي بما في ذلك الحوار والوصف ، وهو بهذا المفهوم يقابل الحكي ويشكل معه حلقة تستوعب النص كله.[2] ولما كان السرد فعلا لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء أكانت أدبية أم غير أدبية، يبدعها الإنسان أينما وجد وحيثما كان[3]، فإنه يشكل دينامية مستمرة، ولكن متطورة ترفض تكرار نفسها [4].

السرد إذا عنصر أصيل في الرواية ، يتميز بالرحابة والشمولية وبالقدرة على تسريد مكونات الذات وعناصر الهوية، فالأمم على الدوام تكون في أمس الحاجة إلى السرد لبناء كيانها وتحرير ذاتها من كافة أشكال الهيمنة عبر ما يتيحه التخييل واستراتجياته من آفاق غير محدودة، قد تؤسس – بالنسبة للسرد الروائي العربي– لكتابة روائية نوعية تنطلق من وعي خاص بالذات والعالم.

للسرد قوة جبارة في تمثيل الأفكار والاعتقادات والمذاهب والتعبير عن الأنساق المختلفة ذات العلاقة بالإنسان، فالإنسان عن طريق السرد–بأشكاله المختلفة– يشكل صورة عن نفسه ومجتمعه وتاريخه وقيمه وموقعه ، وعن الآخر وكل ما يتصل به. [5] لذا يبقى مصطلح السرد من أكثر المصطلحات النقدية إثارة للجدل بسبب اختلاف مفهومه من مجال إلى آخر.

–الهوية بين مفهومي الانغلاق والانفتاح

يشغل مفهوم الهوية اهتمام كثير من الباحثين والمفكرين، حيث تظهر في الأدبيات الحديثة والمعاصرة مفاهيم مختلفة لهذا المصطلح، يبدو فيها خطاب الهوية متشابها، يتحرك ضمن مجالات عديدة كالنفس والاجتماع والسياسة والحقوق والأنثربولوجيا... ويمكن أن نشير إلى تصورين أساسيين للهوية:

يرى التصور الأولّ:أن الهوية ماهية ثابتة مكتملة متحققة في الماضي وأن الحاضر ما هو إلا محاولة لإدراك هذا النموذج /المثال وتحقيقه وفي هذا الإطار يذهب المفكر العربي محمد عمارة إلى: أن« الهوية تعني جوهر الشيء وحقيقته، فهوية الإنسان أوالثقافة أو الحضارة هي جوهرها وحقيقتها...(و) هوية الشيء، هي ثوابته التي لا تتجدد ولا تتغير ، تتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة»[6]. إذ إن ربط الهوية بما هو ثابت لا يقبل التحول هو ضمان حفظ استمرارها عبر الزمن.

أما التصور الثاني: فهو تصور دينامي، يرى أن الهوية يتم اكتسابها وتعديلها باستمرار، فهي قابلة للتحول والتطور، فثبات الهوية كما يرى الكاتب زكي نجيب محمود : لا ينفى أن يكون في ركائز البناء، وأما ما يقام على هذه الركائز من مضمون حضاري لابد أن يتغير مع تغير الحضارات. [7]

ويقدم محمد عابد الجابري فهما معمقا للهوية يرى فيه أن (الهوية) «كيان يصير ، يتطور، وليس معطى جاهزا ونهائيا، هي تصير وتتطور، إما في اتجاه الانكماش، وإما في اتجاه الانتشار، وهي تعتني بتجارب أهلها ومعاناتهم وانتصاراتهم وتطلعاتهم وأيضا، احتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى.» [8]

لكن لابد من التنويه إلى أن للهوية وجهين أحدهما ثابت والآخر متغير، فهناك ثوابت ثقافية يصعب تغييرها وتحتفظ باستمراريتها عبر الأجيال وهي مكتسبة ، وهناك عناصر ورموز ثقافية قابلة للتغيير و التعديل ويمكن القول: إن الهوية بناء يتشكل ويتطور كلما دعت الحاجة إلى ذلك وهي سعي مستمر نحو التجديد المثمر والتحول البناء والإضافة الحقيقية التي تكسبها القوة وتحميها من التلاشي خاصة بعد أن تحولت في يومنا هذا إلى هدف تهدده رياح العولمة العاتية. فإذا كانت الذات الخائفة من الامحاء والانسحاق تؤثر التقوقع على نفسها وترفض الآخر، فإن المثقف الحقيقي (مفكرا كان أم روائيا) عليه أن يتجاوز هذه الرؤية المغلقة ويبتعد عن التعامل مع مكونات هويته القومية بصفتها جوهرا ما ورائيا أو عنصرا نقيا أو بنية ثابتة أو حقيقة متعالية أو شعارا مقدسا وبذلك يخرجها من إطارها الجامد، وينظر إليها بصفتها شرطا يمكن تغييره، أو معطى ينبغي صنعه وتحويله [10]، لهذا السبب « يعد أكثر الناس وعيا بالهوية وقدرة على تجاوز المألوف والابتكار فالمهم ألا يحول تعلقه بما يشكل رموزه وهويتها من دون ازدهاره وتألقه، ومن دون تفرده وإبداعه، فالخصوصية فرادة تسمح للإنسان بأن يكون عالميا»[11].

وبما أن الهوية كما سبقت الإشارة، ليست بناء مكتملا وجاهزا ، إنما هي حدث دنيوي خاضع لتحولات التاريخ وسيرورة الثقافة ، أمكن القول : إن السرد بما هو عملية بناء وتنظيم تعيد الانسجام للمتنافر والمشتت ، يمثل إحدى الأدوات التي يحتمى بها في تشكيل الهوية وإبراز عناصرها [12].

وهذا النوع من السرد، هو ما يطلق عليه المفكر العربي إدوارد سعيد "بالمقاومة الثقافية أو"ثقافة المقاومة" ، التي تنهض على أساس التفاعل الثقافي الرامي إلى استرجاع هوية الأمة وترميم وجودها من جديد [13].ومما سبق نحاول الاقتراب من عالم رواية البحث عن العظام لإبراز كيفية تشكل الهوية والخصوصية المحلية ، من خلال سعي أبطالها لإعادة بناء الذات وتأكيد تجذرها التاريخي والثقافي الجزائري.

2-البحث عن العظام/ الواقع والتاريخ وتمثل الهوية الوطنية:

تربط رواية "البحث عن العظام" صلات وطيدة بالواقع الوطني في بعده التاريخي، فترسم بذلك صورة حية عن المجتمع الجزائري، وعن حياة أهله بجبال جرجرة بمنطقة القبائل الكبرى في مرحلة زمنية محددة تمثل مرحلة الاستقلال الوطني.

تنطلق أحداث الرواية من الحاضر الذي يمثل زمن الاستقلال ، لكنها تغوص في أعماق التاريخ، فتستمد أسئلة متنها من رحلة كفاح أهالي المنطقة ضد المستعمر الفرنسي، والرواية بهذا الشكل تستوعب الواقع من خلال علاقتها بالمحيط الاجتماعي والبيئة والتاريخ وتعبر عن ملابساته وتفسر تناقضاته.فهي رحلة بحث مضنية وشاقة عن رفات شهداء القرية من الشباب الذين استشهدوا في مناطق متفرقة من أرض الوطن ، وظل حلم استعادة رفاتهم يراود أهل القرية وفي مقدمتهم السارد الذي أصبح معنيا هو الآخر بالبحث عن رفات أخيه الشهيد.

كان بإمكان الأهالي أن يعيشوا أفراح الانتصار على العدو الفرنسي وأن يتناسوا أمر هؤلاء الفتية ، لكن الموقف الشعبي العام الذي كان يطبع مرحلة الاستقلال، كان يمنع ذلك لأنه مشحون بقيم الوفاء والإخلاص لتضحيات الشهداء الذين ماتوا بشجاعة مثالية ، وهاهم اليوم بعد أن وضعت الحرب أوزارها يتحولون في أعين ذويهم إلى أغنيات جميلة تصدح بها شفاه النسوة وإلى أحاديث ممتعة يتداولها الشيوخ.

اتخذ للمقبرة التي ستضم رفات الشهداء أحسن موقع في القرية، لتظل شاهدا حيا في مواجهة النسيان «لم تكن لتخفى على نظرة أي مسافر يمر بالمكان»[14].إن هذه الرموز الفذة –في تصور الأهالي، هي أفضل ما يمثل الهوية التاريخية للقرية «كان القرويون يفكرون، هؤلاء الموتى هم أفضل من يمثلنا في نظر كل من يمر من هنا فيسأل عن هويتنا[15]. و من ثم تهافتوا على الارتحال إلى مختلف مدن الوطن و قراه القريبة والبعيدة بحثا عن رفات أبنائهم، «وكان أتعس البحاثة أولئك الذين صادف وأن مات شهداؤهم في أمكنة قصية إلى درجة أن البحث عنهم كان يتطلب قطع البلد كاملا».[16]

ينتقد السارد سلوك الأهالي الذين تملكهم هاجس التنقيب عن رفات أبنائهم الشهداء من خلال ما يطرح من تساؤلات تكشف عن تناقضات واقع جديد كرس الأنانية العمياء والتخلي عن القيم الروحية النبيلة من يفهم البشر!؟ يبكون ذويهم، زاعمين أنهم أعز شيء

يفتقدونه في هذا العالم ، ثم يسارعون إلى نبش رفاتهم ، ثم يدفنوها في أعمق القبور! .. [17] وتتواتر الأسئلة المدينة للواقع وملابساته:« لم يصر الأحياء كل هذا الإصرار على نبش رفات أولئك الموتى المجيدين وعلى تغيير قبورهم..أيريدون أن يتأكدوا أنهم ماتوا وأنهم لن يعودوا أبدا للمطالبة بنصيبهم من الاحتفاء ومعارضة خطبنا وتظاهراتنا الوطنية وسعادتنا بالنجاة من لهيب حرب كان أعمى لا يرحم ».[18]

أمام إكراهات الواقع الجديد و عمق تناقضاته، لم يجد الأهالي من وسيلة يؤكدون بها وجودهم ويثبتون من خلالها أحقيتهم في حياة كريمة سوى عظام هؤلاء الشهداء التي جرى تحويلها إلى ورقة رابحة تمهد لكومة الأوراق والشهادات والبيانات الثبوتية والتعيس من الأهالي من لم يعثر على ما يؤكد انخراطه في الكفاح«ما أتعس الإنسان الذي لن يكون بحوزته لا عظام ولا أوراق يستشهد بها أمام عنجهية بني جنسه»![19].

لقد أصبح المستقبل كما تصور الرواية « وراقة كبيرة ، يساوي فيه كل دفتر وملف مائة مرة وزنه ذهب»[20] والمقطع إدانة صريحة لزمن الاستقلال الذي يعد امتدادا للماضي الاستعماري، فقد ظلت أوضاع الأهالي على حالها وتلاشت كل أحلامهم ودفعت بهم ظروف القهر والحرمان إلى استبدال«قاعدة الشرف وتقاليد الأجداد بقاعدة أخرى، تتمثل في كمشة الأوراق والنسخ والعقود والشهادات المختلفة والبطاقات المتنوعة».[21]

ويمتد نقد الواقع الوطني في الرواية إلى نقد سلطة الاستقلال التي سمحت قيادتها بتحويل الشهداء إلى مجرد بطاقات تسمح لذويهم الاستفادة منهم ماديا، فجزائر الاستقلال لم تقدم لصناع الحرية من شباب القرية ما يليق بهم من المكانة التي تتلاءم وحجم التضحيات الجسام التي قدموها ولم توفر لذويهم الحياة الكريمة التي يستحقونها وظلت شرائح كثيرة منهم تعاني التهميش والفقر وكان بإمكانها أن تتحول إلى طاقة ايجابية فعالة ، تسهم في بناء الجزائر الجديدة وتكمل مسيرة هؤلاء الشباب الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الوطن ، لكن سياسة الإقصاء العميقة حالت دون إسهام هذه الشرائح في بناء مجتمع جزائري عصري.

هكذا ظلت القرية في جزائر الاستقلال تراوح مكانها في الزمان والمكان بالرغم من سجلها البطولي الخالد في مقاومة جبروت الآخر الفرنسي ودحره للأبد ، وظل هذا السجل التاريخي الفذ الملاذ الذي تعود إليه شخصيات الراوية بين الفينة والأخرى لتأكيد ذاتها وتحقيق وجودها .

وبعيدا عن هذه الرتابة التى تسود عالم القرية،تبرز المدينة في الرواية في ظل التحولات الجديدة التي صاحبت خروج المستعمر فضاء مفعما بالحركة و الحيوية. كان رواد المقاهي يتحدثون عن «جلاء الأجانب المستعجل وعن المتاع الذي تركوه، وعن فن أن تشتري عمارات ومنازل مقابل لا شيء تقريبا »[22] ويتحدثون كذلك عن« طرق الحصول على أملاك ومناصب في الإدارة ... وعن الشاحنات والدكاكين والعمارات ،كما نتحدث نحن في القرية عن الماعز والمحاريث الخشبية.» [23]

هكذا يجسد الفضاء المديني في الرواية أهم التحولات الجديدة وما لها من أثر سلبي على سلوك الناس الذين أصبحوا يلهون وراء مصالحهم الضيقة والخاصة، حيث تنتقد سيطرة القيم المادية وظهور سلطة رأس المال في أوساط المجتمع، سلطة موازية للسلطة الحاكمة، وهذا ما تجسده المقاطع السردية الآتية التي جاءت على لسان أحد سكان المدينة الجدد وكان قد فقد ابنه في حرب التحرير «هاهم الأجانب يذهبون دون المطالبة بما تركوه ، فأصبح كل شيء هنا ملكنا الشرعي.. كسرنا أول باب مغلق صادفنا، كانت فيلا جميلة تتكون من غرف عديدة..ويا ما كان فيها من خيرات ! أسرة خزائن كراسي، طاولات، أواني..».[24]

فالسلطة الحاكمة لم تكن لتخيف هؤلاء المستحوذين على خيرات الوطن دون وجه حق «هؤلاء الرجال الذين يتعثرون تحت ثقل نياشينهم والذين يريدون الاستيلاء على كل شيء لا يخيفونني»[25].

حاول الكاتب تشريح الواقع الوطني بعد الاستقلال للكشف عن اختلالاته وملابساته من خلال رحلة كفاح الإنسان الجزائري لتأكيد ذاته أمام الآخر الفرنسي المختلف عنه دينا ولغة وثقافة وقد كانت الثورة التحريرية المسلحة السبيل الأنجع إلى تأكيد تجذره، وإثبات هويته الجزائرية ،إلا أن أحلام الذات وطموحاتها وآمالها بحياة كريمة ومستقبل واعد قد تبخرت في جزائر الاستقلال بسبب عوامل عديدة ألمعت إليها الرواية وهي عوامل تتراوح بين السياسي إلى الاجتماعي إلى الثقافي أدت إلى تمزق الذات الوطنية وتشظيها وعودتها إلى نقطة البداية الأولى وهذا ما تنتهي إليه الرواية: «القرية ما تزال قائمة لم تتغير في غيابها وقد راحت تكتم أسرارها و...بعيون باردة كالصخر.. ما تزال هناك في الأعالي مواجهة حيرة السائلين بنفس الصمت الأبدي الذي يدمي الجراح.. كم من ميت سيعود غدا إلى القرية ؟ إني متيقن أن

أكثرنا موتا ليس هيكل أخي الذي تطقطق عظامه في الكيس بغبطة لا نفاق فيها، ربما كان الحمار السخي الجهد والنهيق ،هو الحي الوحيد الذي تعيده قافلتنا إلى القرية»[26].

3-البيئة الطبيعية / فضاء الذات وتشكيل المكان الراوئي:

التفت الكاتب عند تشكيل الفضاء المكاني للرواية إلى البيئة الطبوغرافية لمنطقة القبائل (الجبلية) ، فقد لجأ إلى تبيئة أسماء الأمكنة التي تدور فيها أحداث الرواية ، فبدت مسكونة بأبعاد المكان الواقعي وبأصداء الهوية المحلية، تحاكي أمكنة مألوفة لدى القارئ الجزائري، لها حضورها الفعلي في ذاكراته ووجدانه ، وإن كنا نسلم بروائيتها وبأبعادها التخييلية.

من المقاطع الوصفية التي تتوشى بتضاريس منطقة القبائل ما يحكيه السارد عن تلك القرى الجبلية الوعرة المتقاربة الموقع وعن الطريق الملتوي المؤدي إليها «فالطريق المذكور ينحدر من جبل عال راسما تعرجات خلابة ثم يتدفق كجدول هادئ بين قرى متقاربة الموقع، ايداسن تباعروت، ايغيل مهدي ،أولمو، عند منعطف آخر قرية، كان الأفق يتمزق كاشفا البحر الأزرق المجلو»[27]

وفي مقاطع أخرى من الرواية يأتي الوصف ممتزجا بالسرد، مما يضفي على هذه المقاطع حركة وديناميكية ومن الصور المكانية الحية التي حملت بين ثناياها أسماء بعض القرى الجبلية في بلاد القبائل« تمر القوافل بقرى تيفزوين ، وأقوني، ووندلوس وابرون الصعبة المداخل لوعورة الطبيعية ، كان المارون يرون تلك القرى من الطريق، فيروحون يتساءلون كيف يمكن لسكانه الصعود إلى بيوتهم أو بلوغ هذا الطريق الموازي للبحر ».[28]

وتبدو هذه القرى حين يتأملها السارد كأنها «أعشاش حقيقية للرخامات وقد كللت بأحمر سقوفها صخورا ضخمة يصعب صعودها . إن المرء ليخطر بباله وهو يتأملها أنه يكفي الطيران من أعاليها بضع مئات من الأمتار للوصول إلى البحر »[29].

يركز السارد في وصفه للمكان على الطابع الجغرافي الوعر لهذه القرى الصغيرة الأمر الذي كرس انغلاقها وقساوتها ورتابتها «لاشيء يشبه قرية كالقرية الموالية ، ايغيل مهدي ، تيفزوين، تاينسرت، ازغار، لم يكن في تلك القرى إلا نفس الساحة الصغيرة، ونفس الأشجار العارية، ونفس الحرارة التي لا تطاق» . [30]

انعكست وعورة المنطقة سلبا على حياة القرويين وبخاصة الفلاحين منهم الذين يجدون صعوبات جمة في التعامل مع الأرض في موسمي الحرث والزرع «لا شيء أقسى ولا أيأس بالنسبة للمرء كخدمة هذه الأرض المعجزة التافهة التي ابتلينا بها، فحين ترتطم سكة المحراث بصخرة أو حجر في الأعماق ، تشعر بقبضة يدك تتكسر وبقلبك يقفز إلى حلقك، ما أقساها من لحظات عذاب تلك اللحظات التي تجبرني على شد مقبض المحراث ،فأبقى الساعات والساعات منهمكا في حرث تلك الأرض الوعرة التي تلتصق بها أضلاف الثيران»[31]

لقد كان هذا العنت المرير ضريبة يدفعها الفلاحون أمام قساوة الأرض، مقابل مردود ضئيل لا يسمن ولا يغني من جوع ، ولد لديهم إحساسا باليأس والخيبة التي تتفاقم أكثر فأكثر كلما حل فصل القر بحرارته الشديدة «أيتها القرى ، لكم أنت نافرة ساحاتك المتحولة إلى مجامر من الأقدام والأكتاف المتعبة»[32]

هذا ويقف جبل تامقوت شاهدا على جبروت الطبيعة وعلى صمود الإنسان وصبره على مقاومتها «كان الجبل يسمى تامقوت، إنه مرادف الموت الأكيد، ولكنه أيضا صنو الثلج الناصع والحرية في الهواء الطلق للأعالي»[33]

يدفيء تامقوت بشموخه وبحمايته أهل القرى المطل عليها ويرعب بموته الجميع «كان لا يبالي وكالمحش الذي يحصد العشب غير عابيء بموته»[34] يقال إن الفلاحين الشباب الذين كانوا يلجأون إلى الجبل «كانوا يموتون بشجاعة مثالية »[35].

وحتى لا تكون صورة المكان المرجعي مطابقة للواقع من خلال اشتغال الرواية على مكوناته وخصائصه الطبوغرافية، يرتقي السرد بمكونات المرجع إلى جمالية أدبية يمتزج فيها الواقع بالتخييل، الحسي بالمطلق ، فيتجلل السرد في بعض مقاطعه بسحر الشعر وشفافيته.

من المقاطع السردية التي تحمل إحساسا فياضا بجمالية المنطقة وتعكس علاقة تناغم بين الذات الساردة والعالم الخارجي« منذ أن حاذينا البحر ، تراجعت الحرارة وكأنها ذوت وقد ابتلعها البطن الأزرق الشاسع ، كان نسيم مهدهد يمسد على وجوهنا عابقا برائحة ما فتئت تغزو أنوفنا بمزيج من أريج نسغ الأشجار وتعفن الخشب وروائح الأسماك البحرية ومذاق سفر بلا رجعة» [36].

ويمتد أثر البيئة الجميلة أكثر فأكثر في وجدان السارد، كلما امتدت به المسافات بعيدا عن فضاء قريته الموحش، فيبدو أثرها فعالا في نفسيته« كان ضجيج الفجر المشحون أجمل ما

يمكن سماعه، مع لمعات وجه السماء المتراص و رفرفة أجنحة العصافير المبكرة الساحرة، لم يكن يخفى علي أي غناء ينطلق في الأجواء العذراء، زقزقات قبرة أو بلبل أو أحمر صدر لكن الصوت الذي يسلب عقلي هو صوت الشقراق الذي يتصاعد ثم يخفت في غناء حزين يمزق القلوب، لكأنه يعاني حسرات الموت، ثم سرعان ما يتصاعد مرة أخرى ».[37]

يمثل هذا المقطع مستوى من مستويات اللغة في رواية "البحث عن العظام"، إنه مستوى اللغة الشعرية الذي يرتقي فيه التعبير ليشف عن روح شاعرية رقيقة وأحاسيس مفعمة بالرقة والعذوبة، تتواشج فيها الذات بمكونات الطبيعة وأصواتها التي تتحول إلى نشيج للروح وآلامها. يستهدف هذا الجمال الطبيعي الذي تحاكيه الرواية في وجوده وهويته ومما يورده السارد عن قساوة الآخر/ المستعمر ومحاولاته تشويه وجه الطبيعة الساحر.« لم يعد المنظر المحتضن لقمة الجبل، لقد عوضت قسوة الأسوار المبرقعة بعدائيتها خضرة الأشجار المكورة، لم تعد الأشجار إلا مجرد جذوع قزمة خالية من أي حفيف.كان العساكر شديدي الخوف بلا شك من كل ما يرتبط بالحالة القديمة لمرتفع الجبل: القرويون الاخضرار المتحرك، امتداد الظلال، حفيف الرياح عبر الأوراق، لذلك كانوا يقضون وقتهم في قطع الأشجار واستئصال الأحراش وتفتيش الرجال ومطاردة الرعاة وقطعانهم»[38].وفي زمن الاستقلال لاتولي السلطات الجديدة أدنى اهتمام لهذه المنطقة ، فتبقى على ما كانت عليه زمن الاستعمار.

4-الشخصية الروائية/ ملامح الهوية الجزائرية:

أحاط السارد بشخصياته إحاطة كاملة ،فكشف عن طباعها وسلوكاتها واستطاع أن يرسي أبعادها الإنسانية، والوجودية «مطلقا دور المكان في تكوين حاضنة تنمو عبرها الشخصية، فكأن المكان هنا يلد النموذج ويرعاه دون فصل بينهما»[39]حيث يعمد إلى سحب ظروف الواقع المعيشي وخصائص البيئة الجبلية القاسية على ملامح شخصيات الرواية وقد بدت وهي تمارس تجربتها الوجودية في الهامش الاجتماعي مثقلة بالفقر والبؤس.

يتجلى أثر البيئة في بناء الشخصية من خلال استثمار الكاتب لأسماء محلية، استمدها من منطقة القبائل، ويمكن لنا أن نقف على الأسماء الآتية: أكلي أشريف أمزيان، وداه رابح، وموح أبشير، ومحند أرزقي، ومعشو بوزيان، وآمحمد، وموح الطاهر، وحمو بوزيان...

جاءت هذه الأسماء عن قصد وإرادة من قبل المؤلف لتعبر عن العمق الشعبي وعن تجذر نص الرواية في بيئته المحلية، فالاسم أو المدلول اللفظي الدال على الشخص يعد من أهم الوسائل التي يتوسل بها الكاتب إلى القارئ لإيهامه بمدى مطابقة النموذج الشخصي في الرواية للواقع ومحاكاته وتقليده.

والأسماء المذكورة – آنفا– لا تجعلنا نستحضر شخصيات الرواية فحسب، إنما نجدها تعبر بلهجتها (الأمازيغية) عن الذات الثقافية الجزائرية المتعددة. « فاللغة الأمازيغية أساسا هي وسيلة للتعبير عن الذات، فهي الوعاء الفكري والثقافي والحضاري والتاريخي الذي يغرف منه الإنسان الجزائري».[40] وقد أفادت هذه الرموز الاسمية الرواية تعددا في مستويات اللغة وأكسبتها كثرة وقوة جذراها في بيئتها القبائلية الجزائرية.

أما عن الأزياء التي أتت الرواية على ذكرها في سياق عرضها لشخصياتها، فقد عمقت من الأبعاد المحلية للشخصيات ودعمت ارتباطها ببيئتها المحلية، وتمثل هذه الملابس على بساطتها الكساء والغطاء الذي يقي الشخصية من الحرارة أو البرد وهي في مجملها عبارة عن ألبسة تقليدية محلية الصنع ويمكن أن نقف في الرواية على الأمثلة الآتية:

جاء في حديث السارد عن أخيه الشهيد« لقد كانت قدماه الملفوفتان في خرق قماش رث والمحتذيتان ببوغروس من جلد الثيران تقفزان بلباقة»[41].

ويصف السارد الرجال الذين كانوا يمرون أمامه ببرج السبع « كان يمضون في صمت ملفوفين في قشاشيبهم»[42] ويصف شيوخ قائمين على زردة في أنزور «الشيوخ الأغوال ذوي البرانيس الرائعة»[43] ويقول«خرج العجوز مرة أخرى وقد ارتدى قشابية بنية اللون»[44].ويسبب اللباس الريفي المتواضع الذي حاكته أيادي الأم حرجا كبيرا للطفل بمجرد أن تطأ قدماه مدينة "بوبراس" وكان مستعدا أن يتخلص منه عندما رأى ملابس أطفال المدينة «كنت مستعدا لإعطاء أغلى شيء من أجل أن أتخلص من ملابسي فأموه هيئتي الريفية»[45]فقد جعلته هذه الهيئة كتابا مفتوحا تفترسه عيون المارة ومثارا لسخرية أطفال المدينة.

ويلخص السارد مسيرة حياة القروي في هذه المنطقة الجبلية في قوله «نحن شعب يبدأ حياته النشطية مبكرا جدا راع في الرابعة أو الخامسة من العمر، مزارع في الثالثة عشرة، في سن الخامسة والثلاثين يتوقف المرء عن ترك رأسه عارية وعن ارتداء السراويل الأوربية نلبس ثياب

البلد الفضفاضة ونعتمر بالشاش الأبيض، ندخل في معسكر الرجال الذين.. همهم الوحيد العمل الشاق في الحقول نهارا والعودة مساء للجلوس داخل المسجد لتجاذب أطراف الحديث مع الشيوخ ثم أداء الصلاة جماعيا» [46]

وحري بنا أن نشير ونحن نعالج عنصر الشخصية الحكائية إلى الحضور المحتشم لشخصية المرأة في هذه الرواية الذي يعبر عن حالة الإقصاء والتهميش التي تعيشها في مجتمع القرية بل وفي المجتمع الجزائري بوجه عام في مرحلة الاستقلال، رغم التضحيات الجسام التي قدمتها إبان ثورة التحرير المسلحة، ويمكن لنا أن نقتبس المقطع السردي الآتي الذي يتحدث فيه السارد عن نساء جبل تاماقوت المطل على القرية:«كانت النساء قد روضن الموت بجمالهن الهادي وصرخاتهن الوحشية كصرخات الذئاب المفترسة التي تنطلق من حناجرهن المجروحة كانت ترهب المحتل، فيتراجع مرتعدا»[47].ها هن اليوم في زمن الاستقلال يحملن المعاول ويصحبن رجال القرية في رحلة البحث عن رفات الأبناء « كن يرافقننا في البحث عن الرفات وهن يغنين لطرد الحيرة والكآبة والخوف المجمد للأوصال– كن يغنين لتصفية الدموع من مرارتها:

يا جبل هبط رأسك
باش أتشوف عينينا
وين لعبوا صغارنا
يا جبل أرحم أولادنا
اللي رقدوا تحت أحجارك
يا جبل هبط رأسك. »[48]

يلقي الوضع الاجتماعي للقرية بآثاره السلبية على المرأة ،فيحد من أدوارها وفعاليتها التي بدت لا تتجاوز القيام بشؤون البيت و العناية بالزوج والأبناء ،كانت النساء في هذه الأعالي الشامخة«جميلات مغريات رغم هالات الازرقاق التي تحيط بجفونهن رغم الأسمال **الرثة** التي خلفتها آثار الحرب على أجسامهن الممشوقة»[49].تمثل المرأة حالة مهمة من الحالات الإنسانية التي تتحرك في هذه المنطقة الجبلية القاسية وإن كانت الرواية لم تول اهتماما بمستوى وعيها وكأننا بها ترفض تجاوز واقعها وتعيش مستسلمة لقدرها في ضل مجمع ذكوري تؤول الهيمنة فيه للرجل.

أما عن السمات الخلقية التي تسعى الرواية إلى إثباتها علامات دالة على خصوصية الشخصية، يمكن أن نشير إلى الإيمان بالقضاء والقدر وبكرامات الأولياء الصالحين عند الإقبال على السفر من مكان إلى آخر وهذا ما تذهب إليه إحدى الشخصيات«إن التبرك بالأولياء ضروري في مثل هذه الحالات، قبل إتمام السفر»[50] لضمان قضاء الحاجات والعودة السالمة إلى القرية.

كما تنوه الرواية بقيم التضحية والفداء التي كان عليها الثوار في حرب التحرير «كنا صامدين ولما كانت المعركة تندلع، كان دمنا يتحول إلى حمم حامية، وسرعان ما كانت صفوف العدو تتساقط كسنابل القمح»[51] أما الأهالي فكانوا يكنون تقديرا كبيرا لهؤلاء الفدائيين ويتحدثون عنهم بعبارات فريدة« عبارات تقشعر لها الأبدان وتلزم المتحدثين التحلي بصمت ينم عن احترام كبير: الأرض، الشرف، .... الدم، الأخوة»[52].ومن القيم الأصيلة التي يتصف بها أهل القرية إكرام الضيف وإيثاره على أفراد العائلة رغم الفاقة «لا أدري كيف تمكنت أمي من الحصول على كل تلك الأشياء اللذيذة التي تؤكل والتي لم نكن نشك حتى مجرد الشك في وجودها في بيتنا: الكسكس الأبيض الممزوج بالبيض وبقطع الشحم والقديد فضلا عن الحلويات المحشية بالعسل»[53].

إضافة إلى القيم السابقة يحترم سكان الجبال أواصر القرابة الأسرية التي كان « لا ينمحي تضامنها المنسوج بالدم في تقاليد سكان الجبال »[54].

ويذهب السارد إلى أن الوضع الجديد الذي فرضه زمن الاستقلال وما ينطوي عليه من تحولات، قد غير كثيرا من العادات التي كانت متجذرة في المجتمع القبائلي «كان من عادة سكان الجبال إذا عزموا على السفر بعيدا أن يستيقظوا باكرا عند بزوغ الفجر، قصد كسب أطول ما يمكن من زمن.. بيد أن الوضع الجديد للبلد غير حتى التقاليد الأكثر تجذرا في النفوس وحتى الحركات الأكثر عفوية »[55]، لقد اكتشف هؤلاء القرويون البسطاء لحظات السعادة المغرية الداعية إلى قلب العادات والمحرمات وهكذا بدأت الحواجز تفتت رويدا رويدا وقد كان الإنسان في ما مضى لا يجرؤ على تجاوزها لم يعد التعرف على الجميع ممكنا في القرية كان الناس يأتون من كل حدب وصوب « أحيانا كانوا مراهقين حديثي البلوغ ما يزالون يجهلون متى عبارات التحتية المألوفة للتسليم على الجلوس كانوا يمضون وقد احمرت وجوههم من الحرج»[56].

إن البحث عن وفي السمات والخصائص التي تتميز بها الشخصيات في هذا النص هو جزء من رغبة ضمنية لكشف أبعد وأعمق يتصل بأبعاد سيكولوجية وتاريخية واجتماعية وبيئية لشخصية الإنسان الجزائري في بلاد القبائل وهي رغبة ملحة يؤججها ذلك التناغم الكبير بين الرواية والواقع الحي .

5-الخصوصية الثقافية/ ومقاومة الإمحاء:

نشير في بداية حديثنا عن الخصوصية الثقافية لرواية "البحث عن العظام" إلى أن ثمة ارتباط قوي بين مفهوم الثقافة ومفهوم الهوية في الفكر العربي المعاصر، فاختراق الثقافة هو بالأساس اختراق للهوية، ففي الثقافة وبالثقافة يدخل الفرد البشري في البعد الإنساني للحياة، وبالثقافة تتخذ حياته شكلا خاصا، فهي التي تعطيه الجذور وهي التي تموضعه في المكان والزمان، وتجعله حاملا للتراث وهي التي تدفع أمامه إمكانات وآفاقا خاصة، يستطيع بها التعرف إلى العالم والاحتفاء به[57].وبالنسبة لثنائية (الرواية، الثقافة) يمكن القول : إن الثقافة تتسرب إلى الرواية بطريقة أو بأخرى، فكل نص روائي يكشف من خلال بنيته عن العناصر الثقافية المكونة والفاعلة في البنية الثقافية للمجتمع، الذي تصدر عنه الرواية ويعبر عن قضاياها وانشغالاتها وطموحاتها وأيضا عن إخفاقاتها.

إن ما يؤكد هذا التواشج الكبير بين الرواية والثقافة في مدونة البحث، هو المساحة النصية الشاسعة التي خصها السرد لتجسيد الحياة الثقافية في منطقة القبائل(فضاء الأحداث)، حيث يشمل المشهد الثقافي للرواية على: ثقافة الآخر/ الفرنسي التي وجدت سبيلها إلى فضائي القرية والمدينة الجزائرية مع الوجود الاستعماري في البلاد وهي ثقافة دخيلة لا تمت بصلة إلى هوية الشعب الجزائري ولا إلى أصالته ، كما أنها لا تعني البحث باعتبارها ثقافة خارجية غريبة. وبالمقابل تمثل الثقافة المحلية بمختلف تجلياتها: طقوس عادات تقاليد، أغاني لهجة أمازيغية.. جزءا أصيلا من ثقافة الذات ومن ذاكرتها الشعبية التي أدت دورا حاسما في استمرارية الثقافة المحلية وأمنت حفظها من الاندثار.

إن العناصر الثقافية المذكورة وغيرها هي أفضل معبر عن الذات الجماعية وعن الروح الشعبية التي تسري في النص نبعا حيا يزخر بمختلف«القيم الثقافية للجماعة وبأشكالها التعبيرية والرمزية أي بكل ما يميزها عن غيرها **ويلحم** سداها ويبلور موقفها من الوجود»[58].

وبسبب تنوع التجليات الثقافية في الرواية وتعدد عناصرها، ستقتصر معالجتنا للبعد الثقافي المحلي وخصوصيته على استحضار نص الرواية لطقوس "الزردة" مظهرا من مظاهر التراث الشعبي لمنطقة القبائل، نظرا لما يؤمنه هذا الطقس (Rite) أو (Ritus) للكيان الجماعي من تواصل وانسجام في الرؤى والتصورات والسلوكات وكذا الأحلام والطموحات التي تبلور– مجتمعة – موقف المجتمع المحلي من الواقع و الوجود.

تقام هذه الزردة سنويا إرضاء للولي الصالح سيدي معشو بن بوزيان، فهي سلوك تكراري تضمن الجماعة من خلاله« استمرارية ماض ما، مهما كانت طبيعته، أي تكريس وديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده»[59].

و شخصية سيدي معشو بن بوزيان تقع بين الواقع والأسطورة و مما يسوقه السارد حول هذه الشخصية أنه كان « يتميز عن رفاقه لا معجزاته ،إنما باحترام كبير وطاعة خشوعة وتواضع مهيب (و) بسرعة فهمه وحفظة للآيات الكريمة»[60]،وقد جعلت هذه الأبعاد الاجتماعية والدينية شخصية الولي محاطة بهالة من التعظيم والإجلال مزودة بالنفوذ قادرة في– اعتقاد الناس – على التأثير في حياة الأهالي ومن ثم فهم يأتونه للتبرك ويقيمون له طقوس الطاعة والولاء وأحيانا تأخذ شخصية الولي بعدها الأسطوري الخارق ومما يحكي عن قدرات هذا الوالي في الأزمنة الغابرة التي تحددها الرواية بالاعتداء الإسباني على السواحل الجزائرية الذي لم يحث الأهالي على محاربته إنما «كان يكتفي كل صباح، بعد أداء صلاة الفجر بالخروج من القرية حاملا عصاه المعقوفة، يتجه إلى البحر حيث يروح يضرب ساعات وساعات خرشة من شجر الدفلى حتى ينهار على الأرض، وبدل أن يسيل من الدفلى نسغ مر ينهمر من أوراقهما دم أحمر ساخن إلى أن مر على القرى براحون يعلنون لأهل الجبال أن الإسبان جلوا عن آخر مدينة ساحلية»[61].ويذهب السارد إلى أن الولي الصالح لا يحقق إلا أمنية واحدة للفقراء على مدار السنة وقد كانت «معجزات الولي الصالح تتحقق بشكل غريب لا يدع مجالا للشك إذ لا يمر أسبوع واحد حتى يأتي أحد الأتباع مغتبطا مبتهجا ويهدي تيسا أو كبشا للولي الذي ينصر طالبيه في كل امتحان».[62]

يصف السارد الاستعدادات الحثيثة التي يقوم بها المشرفون على هذه الاحتفالية فقد «علق منظمو تلك الزردة مكبر صوت بمئذنة مسجد مدينة أنزور وما فتئوا يعلنون عنها منذ الصبيحة »[63] حتى يتسنى للجميع المشاركة في طقوس الزردة وعدم التأخر.

«كان بعضهم يأتي من قرى بعيدة جدا، قد يتطلب بلوغها أياما من السير، وقد يوجد من بين موريدي الولي الصالح من لا يتكلم اللغة المحلية، وإنما يتكلم لغة أخرى أكثر مجدا لقربها من اللغة المقدسة» [64].

أما أوائل القادمين فكانوا أولئك الذين« أقبلوا من قرى الروابي العالية، من جهة وادي الظل، لقد بدوا للعيان قبل ساعة من وصولهم القرية، الرجال يسيرون في المقدمة وقد حملوا لواء موحد اللون– أصفر أو برتقاليا، إذ من الصعب تحديد اللون في ضوء عصر المحي – والنساء العجائز يتبعنهم، كوكبة هلامية من القماش الملون بمختلف الألوان، كانت أغانيهم تسمع... من بعيد لقد وصلت القافلة الأولى.. يتقدمها حامل اللواء الذي يتبين الآن أنه برتقالي ... وقد راح يعرج تحت ثقل السنجاق ويغني مع الآخرين..» [65].

يعود سر هذا الإقبال المنقطع النظير على حضور زردة سيدي معشو إلى قوة إيمان الأهالي بكرامات الولي الذي يجعلهم يتوافدون من ربوع الجزائر وخاصة من القرى الجبلية القريبة، تقودهم إلى مقامه الزكي رغبتهم في التبرك والدعاء طردا للشرور واستجلابا للبركات. إن قضاء مثل هذه الحاجات الخاصة يدفع بالكثيرين إلى المجيء إلى المكان قبل يوم الزردة بأيام حيث «يعسكرون قريبا من القبة المباركة.. تتلى الأناشيد الدينية والأراجيز المقدسة التي تضفي على المكان المقدس هالة من الكرامات وتخرجه من سباته المعتاد»[66].

تدب الحياة والحركة إذا في فضاء القرية التي تحتضن مقام الولي فتصبح«تعج بحركة جديدة دؤوبة، حتى يخيل للمرء أن سكانها اكتشفوا من جديد سلالتهم الشريفة المنحدرة من المرابطين المجيدين ههنا، وقد كان بعضهم ينسى تقوى هؤلاء الأجداد العظماء»[67].

ومن هنا تضطلع هذه الاحتفالية السنوية بدور تحفيزي، إنها تحفز الذاكرة الجماعية على تذكر مجدها العتيد وتراثها الأصيل الذي يمثل بطاقة هويتها الثقافية.

هكذا ينتهي جميع المريدين، وحتى بعض الفضوليين ممن ليس من عاداتهم زيارة حرم الولي المبارك إلى الانضمام للمبتهلين «تخرج من جميع البيوت دلاء الماء الطاهر للوضوء والمصاحف العتيقة التي أكلت العثة حواشيها لعدم فتحها منذ شهور طويلة، تصير الأيادي تتخاطفها والأصابع المرتعدة تتصفح ورقاتها المصفرة»[68] استجابة لدواع روحية تؤججها هذه الأجواء الروحانية المهيمنة التي يأمل فيها المريد التطهر من درن الحياة والسمو الروحي إلى عوالم مثالية. وعندما يلتقي المريدون بالساحة المسواة بالإسمنت الممتدة أمام حرم

الولي «يأخذ شيخ القرية يوزع بلا جحود الأدعية المقفاة كالشعر والمحفوظة منذ زمن طويل لمثل هذه المناسبات الكبرى»[69].تسبق ذبح القرابين وتقديم الهدايا دورة تعرف بدوره الجذب أي الرقص تعبيرا عن التقوى، حيث يتفانى الأتباع حتى أفقرهم في التعبير عن كرمهم اللامحدود في هذا اليوم المشهود،لكن الرواية تلتفت من خلال عرضها لمشاهد البذل والعطاء لنقد الواقع الاجتماعي القائم على الطبقية والغناء الفاحش، فالأغنياء والأعيان الذين عج بهم مقام الولي جاؤوا كما يذهب السارد«كي يؤمنوا على ممتلكاتهم بالدعوات التقية الصادرة عن المرابطين»[70] فكان هؤلاء (المرابطون) لا يبخلون عليهم بدعواتهم السخية مقابل ما يلقون به من أوراق نقدية.تنقل الرواية على لسان أحد المرابطين دعواته لأحد الأغنياء:

«اللهم كثر دكاكينه حتى تصير كالفطائر في الخريف (هكذا) ،اللهم اجعل صناديقها العديدة تمتلئ بالمال كما تمتلئ النحل بالعسل. اللهم وسع دوما حدود أراضيه و انعم عليها بالشجر المثمر والزرع اليانع والضرع الحلوب، واجعل بيوته عمارات شاهقة.. اللهم اجعل أولاده أسيادا يتمتعون في طمأنينة بالخيرات الراهنة والآتية»[71].

ترتبط الدعوات المذكورة بالحياة الدنيا وبعالم المال والغنى في حين ترتبط دعوات الفقراء من المريدين بأحلامهم المتواضعة و وبحياتهم البسيطة ،فلا تتعدى كما يقول السارد« إبعاد الحسد عن الأولاد... أو البقرات الهزيلات»[72].ولأن الحديث عن الزردة لا يكتمل إلا بالحديث عن حلقات الرقص التي تقام في صحن الحرم الواسعة، ومما تورده الرواية بشأنها:

« كانت حلقات الجدب ترعد كزوبعة تنبعث رعودها من صدور الأتباع، كانت التلاوة المقدسة تتبع من حين لأخر بأنين عميق متناغم... هاهي الرؤوس والأجساد بكاملها تطلق العنان لتمايل مجنون»[73] يملأ مشهد الراقصين وأصواتهم المتعالية فضاء الحرم بالآهات والتنهدات والتأوهات التي ظلت مكبوتة على مدار سنة كاملة من القهر والتهميش، لا تختلف في قساوتها عن سنوات مضت عاشها الأهالي تحت وطأة المستعمر الفرنسي.

وبقدرما ترتبط الزردة بطقوس الرقص ترتبط كذلك بطقس الطعام سيما طبق الكسكسي الأصيل حيث يتم الانتقال من عوالم الرقص المجنونة إلى جنون الملاعق كما يقول السارد ، ومن صوره في الرواية « في قلب الليل المخيم ما فتئ الشيوخ الأتقياء يأكلون بنهم الكسكسي و اللحم الطيب، كان غراف كبير من المرق الأحمر يدور على قصعات الخشب المملوءة كسكسي وكان الشيوخ الأتقياء يأكلون بصمت وقد تحولوا إلى حيوانات طائعة

مبحوحة»[74] في حين يتحلق الناس العاديون من البسطاء بعيدا عن هؤلاء الشيوخ، فهم كما تصف الرواية«أقل تميزا إذ لا يجوز أن ينظموا إلى الكوكبة المجيدة للأعيان الأتقياء، كانت قصعتهم موضوعة على الأرض بلا سجادة »[75]،وفي ذلك إشارة إلى الفروقات بين الأعيان والشيوخ والمريدين الفقراء من الأهالي ورغم هذا تبقى الزردة من أهم التمظهرات الاجتماعية المعبرة عن الخصوصية الثقافية لمجتمع الرواية، لما تحققه لكيانه الممزق من لحمة وتواصل تجسده حلقات الرقص وقصاع الخشب (الدائرية) العتيقة و الأدعية المقفاة التي يرددها المريدون وما تحمله بين نغماتها من أصالة مستمدة من عبق الماضي الجماعي المهدد بالاندثار تخلع عليها الرواية مسحة من الطهارة الطوباوية، فتغدو خير معبر عن توترات الحاضر وتناقضاته.

خاتمة

في ختام هذه القراءة يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية.

–تكشف الرواية عن جرأة كبيرة في نقد الذات و محاربة سياسة القمع و الإقصاء و عرقلة إرادة تغيير الواقع.

– يتواشج خطاب الهوية في رواية البحث عن العظام بما هو نفسي وديني واجتماعي وتاريخي وثقافي..

– سخر السرد جانبا من التراث الأمازيغي (عادات، وتقاليد، وطقوس دينية واجتماعية..) لخدمة الفن الروائي و قد أبان عن تصور جديد و تفسير مختلف لبعض مكوناته باعتبارها شروطا يمكن تغييرها.

–يمثل البعد الثقافي المحلي مكونا جماليا وأداة مواجهة ضد التغييب والتهميش الذي تمارسه بعض الأنساق الثقافية – المتعالية– في الواقع الحي.

– يبرز التاريخ في الرواية متماهيا والهوية الجزائرية معبرا عن وحدة الأمة في ظل مد جسور للتفاهم و اللقاء و إجبارية تحرير الوعي من الجمود الذي يفرضه الاستسلام لبعض القيم السلبية و الإيمان بمطلقية صوابها.

الهوامش

1–جيراد برنس: قاموس السرديات، ترسيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات القاهرة 2003 ص 48.

2–عبد الرحيم الكردي: السرد في الرواية العربية المعاصرة (الرجل الذي فقد ظله نموذجا) مكتبة الآداب. القاهرة ط1 2006، ص 103.

3–ينظر سعيد يقطين: الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي) المركز الثقافي العربي الدار البيضاء (د،ط) 1997، ص 19.

4–ينظر بول ريكور: الوجود والزمن والسرد، ترسعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 2001 ص 46.

5–أحمد فرشوح: الرد بالكتابة، قراءة في رواية الرماد الذي غسل الماء لعز الدين جلاوجي ضمن كتاب، الهوية والتخيل في الرواية الجزائرية (قراءات مغربية)، رابطة أهل القلم، سطيف، الجزائر 2008 ط1 ص 86.

6–محمد عمارة: أزمة الفكر الإسلامي، دار الشروق الأوسط للنشر 1990 (د،ط) ص 24

7–زكي نجيب محمود: عزبي بين ثقافتين، دار الشروق ط2 1993 ص 67.

8–محمد عابد الجابري: العرب والعولمة، مركز إسات الوحدة العربية القاهرة 1998 ص 298.

9–ماجدة حمود: إشكالية الأنا و الآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت مارس 2013، ص 16.

10–المرجع نفسه ص نفسها.

11–المرجع نفسه ص نفسها

12–إدريس الخضراوي: البطاقة السحرية: التاريخ وسرد الهوية ضمن كتاب الهوية والتخيل، الرواية الجزائرية ص 89.

13–ينظر إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة ط1 2012 ص 99.

14–الطاهر جاووت: البحث عن العظام جيلالي خلاص، دار القصبة للنشر، الجزائر 200 ص 09.

15–المصدر نفسه ص نفسها.

16-المصدر نفسه ص 08.

17-المصدر نفسه ص 41.

18-المصدر نفسه ص نفسها.

19-المصدر نفسه ص 16.

20-المصدر نفسه ص 33.

21-المصدر نفسه ص 94.

22-المصدر نفسه ص 107.

23-المصدر نفسه ص نفسها.

24-المصدر نفسه ص 112.

25-المصدر نفسه ص 116.

26-المصدر نفسه ص 141.

27- المصدر نفسه ص نفسها.

28-المصدر نفسه ص 11.

29-المصدر نفسه ص 20.

30-المصدر نفسه ص 29.

31-المصدر نفسه ص 67.

32-المصدر نفسه ص 28.

33-المصدر نفسه ص 23.

34-المصدر نفسه ص 24.

35-المصدر نفسه ص 23.

36-المصدر نفسه ص 40.

37-المصدر نفسه ص 42.

38-المصدر نفسه ص 90.

39-فاتح عبد السلام: تريف السرد (خطاب الشخصية الريفية في الآداب) المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1، 2001 ص 156.

40–حكيم أومقران: البحث عن الذات في الرواية الجزائرية دار العرب للنشر والتوزيع وهران الجزائر (د. ط) (د.ت) ص 223.

41–الطاهر جاووت البحث عن العظام ص 65.

42–المصدر نفسه ص 120.

43–المصدر نفسه ص 127.

44–المصدر نفسه ص.

45–المصدر نفسه ص 64.

46–المصدر نفسه ص 23.

47–المصدر نفسه ص نفسها.

48–المصدر نفسه ص نفسها.

49–المصدر نفسه ص 46.

50–المصدر نفسه ص 107.

51–المصدر نفسه ص 22.

52–المصدر نفسه ص 21.

53–المصدر نفسه ص 17.

54–المصدر نفسه ص 18.

55–المصدر نفسه ص 05.

56–ينظر محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان (د ت) ط2 ص 213.

57–محمد الداهمي: صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة ط1 2013 ص 204.

58–العقبي الأزهر: محاضرات في علم الاجتماع الديني، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة الجزائر 2014، ص 36.

59–الطاهر جاووت البحث عن العظام ص 54.

60–المصدر نفسه ص نفسها.

61–المصدر نفسه ص50.

62-المصدر نفسه ص 46.

63-المصدر نفسه ص 50.

64-المصدر نفسه ص 54.

65-المصدر نفسه ص 56.

66-المصدر نفسه ص 66.

67-المصدر نفسه ص 51.

68-المصدر نفسه ص 50.

69-المصدر نفسه ص 59.

70-المصدر نفسه ص59 ص 60.

71-المصدر نفسه ص نفسها.

72-المصدر نفسه ص 62.

73-المصدر نفسه ص نفسها.

74-المصدر نفسه ص 62.

75-المصدر نفسه ص نفسها.